توظيف الأسطورة
في الشعر العربي الليبي الحديث

أنيس السنوسي ميلود محمد
دكتوراه في الآداب الحديث
قسم اللغة العربية – كلية التربية – جامعة عمر المختار (ليبي)

المُلخص

الشعراء الليبين لم يهتموا بتوظيف الأسطورة اهتماماً كبيراً، ربما يرجع ذلك إلى انشغالهم بالقضايا السياسية التي كانت تدور في حدود المناسبات والواقع اليومي للحياة، ولم يكن في استطاعتهم أن ينصرفوا إلى التجويد الفني الذي تتطلبه الأسطورة للإسهام في تنمية البناء العضوي للقصيدة وتكثيف دلالاته وتعميق إيماءاتها.

غير أن هذا لا يعني أن الشعراء الليبين قد خلا شعرهم من الإشارة إلى بعض الأساطير اليونانية، مثل: سيزيف، وبروميثيوس، وفينوس، و بعض الأساطير البابلية، مثل: عشتار، وإنكيدو .

و كان تركيز معظم الشعراء الليبيين على أسطورة (سيزيف) للتعبير عن عمق معاناتهم الشخصية أو معاناة مجتمعهم في مواجهة القهر السياسي و الاجتماعي، أو بما تحمله أسطورة (سيزيف) من دلالات العذاب و الألم .

الأسطورة بمعناها الأعم حكاية خرافية مجهولة المؤلف، تتحدث عن الأصل والعلة و القدر، و هي نتاج لسعي الإنسان الدائم لصوغ هواجسه و أفكاره و أحلامه و تصوراته في شكل نزوح جامح إلى الفهم و التفسير . يقول (كلود ليفي شتراوس) : ((. . . لكن الأسطورة لا نصيب لها من النجاح في إعطاء الإنسان قوة مادية أشد للسيطرة على البيئة . إنها مع ذلك تعطي الإنسان و هم القدرة على فهم الكون وأنه فعلاً يفهم الكون، وهذا بالغ الأهمية. لكنه مجرد وهم بالطبع))[١]

---

(١) الأسطورة و المعنى : كلود ليفي شتراوس ، ترجمة : صجي حديدي ، منشورات عيون المقالات –الدار البيضاء ، ط٢ -١٩٨٦ .صـ١٧ ، ١٨ –

وقد حاول الرومانسيين إعطاء الأهمية للأسطورة باعتبارها نوعاً من الحقيقة الإنسانية التي تساعد على فهم العالم. وكان توظيف الأسطورة في الشعر الحديث نزوعاً إلى خلق أداة شعرية تنفتح على التراث الإنساني باعتبارها منبعاً رمزياً لا ينضب.

و على رغم ما يخلقه توظيف الأسطورة من قوة دلالية في النصوص، فإنه قد يكون مصدراً للغموض إذا لم يحسن الشاعر صياغة الموقف الأسطوري وفق ما يقتضيه سياق النص ، بعد ذلك يبقى مجهود المتلقي في تفعيل مسار القراءة و الإيحاء و تعدد التأويل .

هكذا ((يزداد الغموض عمقاً و ثراء باستخدام الأسطورة في الشعر الحديث و بذلك يتحقق الاغتناء الأخصب للمتلقي و هو يضاعف مجهوده لالتقاط الأبعاد الإنسانية و الحضارية و الفكرية و الواقعية ، و يقوي حضورها و يرفع من قدرتها التعبيرية ، إذ يوصل اشتراكاته النفسية و الوجدانية و الفكرية من أجل صنع الرؤية الشعرية))[٢] .

و إن الشاعر المعاصر ((لا تعنيه الأسطورة إلا بقدر ما يتخذ من موقفها العام رمزاً لموقف عصري يشبه نوعاً من المشابهة ، وهي لا يمكن أن تنهض بهذه الغاية إلا إذا أصبحت لبنة عضوية في بناء القصيدة ، و لم تكن مجرد إضافة خارجية يلجأ إليها الشاعر لتزيد الصورة أو المبالغة في تقرير الفكرة))[٣] و إن توظيف الأسطورة في النصوص الشعرية الليبية الحديثة ، جعل لغة هذا الشعر تعانق آفاقاً إنسانية أرحب على اعتبار أن الأسطورة موروث إنساني ، يشكل من ناحية التطور الفكري طفولة إنسانية ، لهذا فإن معانيها و دلالالتها حفلت بالقوة في التعبير ، والأصالة في الأحاسيس

و الشعراء في ليبيا لم يهتموا بالأسطورة اهتماماً كبيراً، ربما يرجع ذلك إلى انشغالهم بالقضايا السياسية التي كانت تدور في حدود المناسبات، و الواقع اليومي للحياة، ولم يكن في استطاعتهم أن ينصرفوا إلى التجويد الفني

---

(٢) مجلة الفصول الأربعة ع ٤١ ــ ٤٢ ،ديسمبر ١٩٩٠، صـــ٦٨ــ

(٣) الرمز و الرمزية في الشعر العربي المعاصر : محمد فتوح ، دار المعارف ــ مصر ــ ط ٤ ١٩٨٤٣ صـ٣١٧ــ

الذي تتطلبه الأسطورة للإسهام في تنمية البناء العضوي للقصيدة و تكثيف دلالاته و تعميق إيماءاتها .

غير أن هذا لا يعني أن الشعراء الليبين قد خلا شعرهم من الإشارة إلى بعض الأساطير اليونانية مثل : سيزيف ، و بروميثيوس ، و فينوس ، و بعض الأساطير البابلية مثل : عشتار و إنكيدو ، و يأتي علي الفزاني في مقدمة الشعراء الذين أغرموا بحشد الرموز و الإشارات التاريخية المختلفة حيث تشكل الرموز في شعره معجماً ضخماً ، و لا يبدو أن الفزاني قد انطلق في اهتمامه بالرموز الأسطورية من وجهة نظر معينة مثل : البياتي الذي أراد أن يوفق بين ما يموت و ما لا يموت ، بين المتناهي و اللا متناهي ، بين الحاضر و تجاوز الحاضر(١) أو مثل : السياب الذي يرى أن اللجوء إلى الأسطورة إنما يأتي من الشاعر ((لإعلاء القيم الشعرية التي غلبت عليها روح المادة لبناء عوالم يتحدى بها منطق الحديد و الذهب))(٢) و ما يدفعنا إلى هذا القول هو أن الفزاني مثله مثل بقية الشعراء الليبيين لم يعمد إلى استغلال أية أسطورة في شعره ليبني عليها القصيدة بناءً كلياً ، إنما كان يُكثر من الإشارات التي لا تتجاوز مضمون اللفظة التي يمكن أن تستخدم بديلاً عن الرمز الأسطوري و من الأمثلة على ذلك قوله في قصيدة ((الطوفان آت)) :عين أنكيد ترى الجولان والطوفان آت فلماذا يا أبا القرنين لم تضع سفينة ولماذا من عظام الميتين آه ماذا لو ولدت عشتار مسخاً(٣) أو قوله في قصيدة أخرى: مدينة بلا حراس مخنوقة الأنفاس جودو بكى وقال: إني أريد ثائراً إنسان!(١)

أما الأسطورة التي شدّت عدداً من الشعراء فهي أسطورة سيزيف، وربما يرجع ذلك إلى بساطة مفهوم تلك الأسطورة وإلى أنها تحمل معنى المُعاناة، وهو معنى يجد هوىً عند معظم الشعراء ويتناسب مع تجربتهم في

---

(١) ديوان البياتي : عبد الوهاب البياتي ، دار العودة – بيروت ، ج ٢ ١٩٧٨ م صـــ٤٠٦ـــ

(٢) بدر شاكر السياب ((دراسة في حياته و شعره)) : إحساس عباس ، دار الثقافة بيروت ، ط ٤ – ١٩٧٨ م صـــ٢٨٦ـــ

(٣) ديوان ((الطوفان آت)) علي الفزاني ، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان – طرابلس ط١ – ١٩٨٠ صـــ١٨ـــ

(١) المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ، الشركة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان – طرابلس – ط١ ١٩٧٥ صـــ٤١٣ـــ

التعامل مع الواقع الذي كانوا يحسّون تجاهه بشعور الاضطهاد والغبن والجُهد المُضاع أحياناً ويثقل مسؤوليتهم تجاهه حيناً آخر.

وقد اعتبروا هذه المسؤولية قدراً فرضته عليهم ضرورة وجودهم في مجتمع يُعاني ألواناً من التخلف، وهم يحاولون أن يقوموا بدور البطل اليائس من مصيره لكنه يصر على النضال حتى آخر لحظة في حياته، فهذه الصرخات: سيزيف أنا؟ من يحمل الصخرة إلى أعلى جبل؟ وغيرها إنما تعني أنَّ الشاعر على الرغم من احتجاجه على القدر الظالم، فإنه يصر على دفع الصخرة لعله يصل بها يوماً إلى قمة الجبل ليتخلص من عذابه.

و من هذه الزاوية استخدم بعض الشعراء أسطورة سيزيف للتعبير عن عمق معاناتهم الشخصية أو معاناة مجتمعهم في مواجهة القهر السياسي و الاجتماعي ، فشاعر خالد زغبية يجد لمعاناته مُعادلاً في عذاب سيزيف فهو في قصيدة ((أيلول الثورة)) يُعاني ما يعانيه الإنسان الشريف من جو خانق للحرية يتعرض فيه الشرفاء لمطاردة أعوان السلطة و مخبريها و تفوح منه روائح النفاق ، و يتحكم فيه اللصوص و السفلة و سماسرة المبادئ ، فهذا المناخ الذي ساد الوطن قبل قيام الثورة اكتوى فيه الشاعر بالعذاب و هو يحمل رسالته من أجل أن يتحقق حلمُه في الثورة :

كأنني ((سيزيف)) قد حملتُ صخرتي و صرت أعدو ألف مرة قد دميت يداي ألف مرة حملت آلامي معي. وصرت أعدو ألف مرة لأرفع الصخرة فوق قمم الجبال ألف مرة [١] وبما أن الصخرة حمل ثقيل يطاردها أبداً الانزلاق إلى الأسفل، فإن الأمر باعثاً على مزيد من الإصرار على الفعل، ومعاودة الكرة مرة بعد أخرى: إيه الأحزان. الأفراح. يا برد الجبال من تُرى يحملُ تلك الصخرة الرعناء من جيلي إلى رأس الجبل ثم لا يألو يدحرجها إلى أعلى إذا ارتدت إلى القاع فلاُ يثنيه خوفُ. لاكلل[٢] هكذا تصبح دلالة الجدوى والتكرار الممل في الأسطورة، موحية لمعاني الإصرار والثقة في المستحيل. فمهما تعثرت المحاولات وفشلت، فإن الثقة في النجاح لابد أن تظل نبراساً للاهتداء حتى لا نسقط في لجة اليأس.

---

(١) ديوان ((غداً سيقبل الربيع)) الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ، ط٢ – ١٩٨٩ صـ٧٣ـ

(٢) ديوان ((عن الحب و الصحو و التجاوز)) : السنوسي جيب الهوني ، دار الحقيقة - بنغازي ، ط١ – ١٩٧٥ م صـ١٣ـ

فهرس المصادر والمراجع

١ – الأسطورة و المعنى: كلود ليفي شتراوس، ترجمة: صبحي حديدي، منشورات عيون المقالات – الدار البيضاء، المغرب ط ٢ ١٩٨٦ م .

٢ – بدر شاكر السياب ((دراسة في حياته و شعره)) إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ط ٤ – ١٩٧٨ م .

٣ – ديوان ((البياتي)) : عبد الوهاب البياتي ، دار العودة – بيروت لبنان ، ج ٢ – ١٩٧٨ م .

٤ – ديوان ((الطوفان آت)) : علي الفزان ، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان – طرابلس ، ط ١ ١٩٨٠ م .

٥ – ديوان ((عن الحب والصحو والتجاوز)) السنوسي جيب الهوني، دار الحقيقية – بنغازي، ط ١ – ١٩٧٥ م

٦ – ديوان ((غداً سيقبل الربيع)) : خالد زغبيه ، الدار العربية للكتاب – ليبيا –تونس ، ط ٢ - ١٩٨٩ م .

٧ – ديوان ((قصائد بين يدي وطني)) عبد المجيد القمودين، منشورات المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان – طرابلس، ط ٢ – ١٩٨٢ م .

٨ – الرمز و الرمزية في الشعر العربي المعاصر: محمد فتوح، دار المعارف – مصر، ط ٤ – ١٩٨٤ م .

٩ – المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة: علي الفزاني، الشركة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان – طرابلس ط ١ – ١٩٧٥ م .

١٠ – مجلة الفصول الأربعة – ع ٤١ – ٤٢ ، ديسمبر – ١٩٩٠ م .

أما القمودين فإنه يستفيد من أسطورة ((سيزيف)) للتعبير عن معاناة الأجراء الذين يخضعون مُجبرين تحت إلحاح الحاجة لاستغلال الرأسماليين و سيطرتهم على سوق العمل، يقول الشاعر على لسان أحد العمال موجهاً حديثه إلى مجلس قيادة الثورة: أنا أفنيت جهدي كلّه سخرة أنا هُدرت حقوقي كُلُّها جهرة ذوو الأموال، (رأس المال) حكمهم على أمري و ظللتُ أنا مع الصخرة أحطمها و أنحطم (فسيزيف) أنا يا مجلس الثورة أنا قد كنت (سيزيفا) و لم أزل[١] وقد وفق علي الفزاني في توظيف أسطورة (عشتار) و ذلك عندما استخدمها استخداماً عكسياً في قصيدته (المعاناة في خندق الليل) بقوله : آه ماذا ولدت ((عشتار)) . . . مسخاً . . . ألبسوها تاج كسرى . . .و الهدايا من بساتين بلادي و الأغاني من مزامير الغزاة [٢] فإذا كانت هذه الأسطورة ترمز إلى الخصب فإن الفزاني جعل هذا الخصب الذي يصدر عنها مسخاً ، و هو بذلك يقدم صورة للواقع الذي يضم اللاجئين و المغتربين و الفقراء الذين يحلمون بالخصب ، و ليس هناك ما يدل عليه ، و إنما الذي يبدو في الأفق هو الضياع و الموت ، و بهذا فإن الشاعر يتوجع و يتألم في فقدان الأمل الذي لم يعد إلا زيفاً و مسخاً ، فالفزاني لم يقتصر على مجرد الإشارة إلى الأسطورة وإنما استطاع أن يجعلها محوراً أساسياً في التكوين الشعري ، فجمعت الصورة بين الحالة الأسطورية و الحالة المُعادلة .

---

(١) ديوان ((قصائد بين يدي وطني)) : عبد المجيد القمودي ، منشورات المنشأة العامة للنشر و التوزيع والإعلان – طرابلس ، ط٢ -١٩٨٢ صـ١٩٤ـ

(٢) ديوان ((الطوفان آت)) : علي الفزاني ، صـ٣٣ـ